المحاضرة الثالثة:

تساؤلات البحث العلمي

تساؤلات الباحث العلمي:

التساؤل: question استفسار استغرابي في مضمونه حيرة وتعجب، وتكون النتائج المترتبة عليه اكتشافية تضيف الجديد، كما هو الحال عند نوتن الذي تساءل عندما شاهد التفاحة تسقط من الشجرة بقوله: (لما لا تصعد التفاحة، لما لا تصعد التفاحة) حتى تمكن من اكتشاف قانون الجاذبية. ويتضح الاستغراب التساؤلي في قوله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر}!!. وقوله تعالى في سورة يونس صلى الله عليه وسلم: {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين!!}. وقوله تعالى في سورة هود صلى الله عليه وسلم: {أنلزمكموها وأنتم لها كارهون}!!.

التساؤل لا يلاحق الإجابة كما هو حال السؤال، بل يسعى لمعرفة الجديد الذي لم تسبق معرفته. فالتفاحة وسقوطها على الأرض عُرِفَ بالمشاهدة المباشرة، ولكن

القانون الذي على أساسه تسقط التفاحة على الأرض بالضرورة هو الذي ترتبت معرفته بعد تساءل نيوتن: (لِما لا تصعُد التفاحة إلى أعلى)!!

وتأخذ التساؤلات الأوجه التالية:

1 . في الأمور العظيمة التي يكون فيها الاختلاف والاستغراب. مصداقًا لقوله تعالى في سورة النبأ: {عمّ يتساءلون، عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون}.

2 . عندما يكون موضوع البحث جديدا بالتمام. كما هو حال نيوتن والتفاحة.

3 . في البحوث النظرية أو المكتبية. كما هو الحال في البحوث الفكرية والفلسفية التي تجرى في الدراسات العليا.

وتصاغ التساؤلات على الكيفية الآتية:

. ألا يكون ارتفاع مستوى الطلاق على علاقة ضعيفة بارتفاع مستوى التعليم.

ـ ألا يكون ارتفاع مستوى الأداء المهني على علاقة قوية وموجبة مع ارتفاع مستويي التعليم والتدريب.

ـ ألا تكون قوة علاقة الأم الموجبة بعملها تُضعف علاقاتها مع أبنائها وتجعلها سالبة.

. ألا يكون للأزمة المالية العالمية التي هزت بنوك العالم وشركاته العملاقة معطيات إذا ما تكررت أحدثت أزمة اقتصادية عالمية تعيد الاستعمار للبلدان الأضعف قوة من غيرها.

ـ لِما لا تُتخذ احتياطات تحقيق السلامة والأمان للمواطنين فيما إذا تكرر إعصارا كإعصار كاترينا في أمريكا، أو غضب الطبيعة كما الحال في سونامي باندونيسيا، والإعصار الذي ضرب أجزاء من عُمان وإيران 2007م.

ـ لأجل سلامة المواطنين من الغارات الحربية والهزات الأرضية المفاجئة لِما لا تصدر قوانين تستوجب بناء مساكن آمنة وفقا للمواصفات الفنية وأن يكون من بينها طابقا للسلامة تحت الأرض؟

ولأجل معرفة المزيد في هذا المضمار العلمي علينا أن نميِّزَ بين مستوجبات صياغة الفروض وبين مستوجبات صياغة التساؤلات.

صياغة الفروض:

تصاغ الفروض عندما يكون جزءا من المعلومة مُتعرف عليه من قِبل الباحث وجزا آخر منها غير متعرف عليه (غائب)، فيصوغ الباحث فروض بحثه بما يُظهر العلاقة المفترضة بين المعلومة (المعلومة) والمعلومة (الغائبة).

صياغة التساؤلات:

لإجراء البحوث العلمية تُصاغ التساؤلات في حالة غياب المعلومة كاملة كما هو حال نيوتن وعدم صعود التفاحة إلى أعلى وهي تسقط من الشجرة، فكانت نتيجة البحث في ذلك التساؤل (لما لا تصعد التفاحة من شجرتها إلى أعلى بدلا من أن تسقط منها إلى أسفل)؟!

كانت نتيجة البحث التعرف على الجديد وهو (قانون الجاذبية).

ولكي لا يختلط الأمر لبسا وغموضا بين مفهوم واستخدامات التساؤل كما تم إيضاحه وبين مفهوم واستخدامات السؤال نقول:

السؤال: question

السؤال هو صيغة لغوية ذات أدوات استفهامية عن معارف سابقة، وبه تستدعى الإجابات مما يجعل الإجابة دائما سابقة على السؤال ويجعل السؤال دائما في حالة ملاحقة للإجابة.

وعند عامة الناس اعتقادا سائدا في غير مكانه بأن السؤال دائما يسبق الإجابة، وهذا الأمر غير صحيح، فلو لم تكن الإجابة سابقة معرفيا ما كان السؤال عنها. ولذا لا سؤال إلا بعد معرفة، وإلا هل هناك من يسأل عن من لا يعرفه، أو عن مالا يعرفه؟. ولهذا يتم التعليم أولا حيث تُعطى المعلومات والمقررات والمحاضرات ثم بعد ذلك تجرى الامتحانات فتصاغ الأسئلة وفقا لما تم إعطائه للتلاميذ والطلبة

أو المتعلمين والمتدربين بشكل عام. وهكذا أمام ربنا جل جلاله لن نسأل يوم القيامة عن شيء لم نُعلم به في الدار الدنيا، ولهذا بعث الله تعالى الرُسُل مبشرين ومنذرين ومحرِّضين على أفعال الخير والإحسان وناهين عن أفعال الشر وما يُفسد الأخلاق، فمن يرتكب مخالفة أو يقترف ذنبا أو يشرك بالله أو يكفر به سيسأل على ما فعل يوم القيامة ويحاسب بأسبابه، قال تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[14].

وقال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}[15].

وعليه فالسؤال لا يأتي بالجديد، بل يُعيد ما سبق وإن قِيل أو فُعِلَ أو أعطي أو طُبِعَ ونُشِرَ في دوائر المعرفة الواسعة، ومع أن المعلومة (الإجابة) تسبق السؤال، إلا أن التعرُّفَ عليها قد لا يتم، أو لا يتم التوفيق في عمليات استدعائها من قِبل الذي أعطيت له عندما تَدخُلَ دهاليز النسيان، أو عندما لا تكون في مستوى القدرات المتلقية والداعية لها.

إذاً من يصوغ أسئلة لبحوث علمية بغرض نيل إجازة عالية أو دقيقة فهو لن يأتي بالجديد، ويكون قد خلَّ بشرط أساسي لنيل الإجازة العالية أو الدقيقة. فالسؤال كما سبق أن بيَّنا يلاحق إجابة سابقة عليه. أما البحث فينبغي أن يضيف شيء جديد، أو يأتي بالجديد المفيد، أو يسهم في التطوير والتجديد النافع. وهذا لن يتأتى إلا بفروض أو تساؤلات علمية متطلِّعة للمستقبل.

وعليه فإن التساؤل لغة غير السؤال من حيث:

ـ التساؤل بالهمزة ففي قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[16] .

فهنا نجد الهمزة تدل على التساؤل لأن القرائن اللفظية في سياق النظم تدل على إجابات متعددة ومختلفة، وذلك أن:

منهم من آمن ومنهم من كفر.

فيبنى على ذلك قناعات مختلفة يترتب عليها إجابات مختلفة لتعدد القرائن الموضحة للتساؤل:

على بينة من ربي.

عميت عليكم.

ربه غير ربهم.

فاختلاف القناعات المبني على اختلاف المفاهيم القائم على اختلاف الثقافة أدى إلى اختلاف الإجابة، ولأن الإجابات ستكون مختلفة لم نقف في الآية على جواب، وهنا تُرك التساؤل على مائدة الحوار للبحث والمناقشة لأنه يرقى إلى مستوى القضية التي تحتاج إلى الأدلة والبراهين من كلا الطرفين لتقرير الإجابة المنطقية، ولذا حكمنا على التساؤل بأنه قضية.

ففي الآية الكريمة لم تتقِ الإجابة، وإنما كانت تحمل ضمناً إجابات تضاربت في الاختلاف، لذلك وجب الدخول في حوار مشترك بين المختلفين للاتفاق على إجابة واحدة وهذا هو الفرق بين السؤال والتساؤل، إذ أن السؤال إجابته معروفة واحدة بالإيجاب والموافقة أم بالسلب والنفي، بينما يحتاج التساؤل إلى الدخول في حوار يرقى أحياناً إلى الجدل من أجل الوصول إلى معرفة وبيِّنة من قِبل المتحاورين في طرح التساؤل.

والنقطة المهمة بهذا الصدد أن السؤال يُرجى منه إجابة، بينما التساؤل يُطرح البحث من أجل الوصول إلى المعرفة، ولذا يصبح التساؤل قضية.

ولأن التساؤل:

قد لا يقتصر على مبحثٍ واحدٍ.

أو أن معرفته محفوفة بالغموض.

أو أن معرفته مجهولة بالتمام.

ولذا فهو استغرابي المفهوم والدلالة مما يستوجب البحث حتى يكون التبيُّن عن دراية ومعرفة موضوعية.

إذا التساؤل أوسع من السؤال وأعم منه وأكثر فائدة من الجانب المعرفي لأنه يستدعي احتمالات كثيرة قائمة على تعدد المفاهيم الناشئة عن اختلاف مصادر الثقافة والعلوم سواء أكانت علوم الاجتماعية والإنسانية أم علوم طبيعية وطبية.

وغالباً ما يكون التساؤل مسبوقاً (بما) الاستفهامية، لأن الجملة المستفهم بها التي تلي (ما) تكون احتمالات الإجابة فيها كثيرة، ذلك أن الاستفهام (بما) يكون عن أشياء مجهولة الماهية والحقيقة لأنها تتأرجح بين:

الصدق والكذب.

الظن واليقين.

العلم والجهل.

الحق والباطل.

ولأن الأشياء التي ينصبُّ عليها التساؤل تكون غير معروفة لذا لا يُحتمل الجزم في الإجابة عن التساؤلات التي منها:

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ}[17].

وقوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}[18].

وقوله تعالى: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}[19]

وأمّا قوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}[20].

فلم يقل عمّ يسألون، وإنما يتساءلون لجهلهم بالإجابة، والإجابة لا تكون إلا بالبحث، أو يجيب علاّم الغيوب عن النبأ العظيم الذي اختلفوا فيه.

وإن كان التساؤل أُردف بإجابة هي: (النبأ العظيم) إلا أن هذه الإجابة ليست إجابة مفردة، فالنبأ العظيم هو قضية كبرى تتضمن الأحداث الكونية التي شاءها الله أن تكون من الخلق والموت والبعث والنشور والحساب والعذاب والعقاب والجزاء والجنة والنار، وكل واحدة من هذه المفردات قضية بحد ذاتها تحتاج إلى نقاش وحوار وجدل وبحوث ودراسات من أجل الوصول إلى معرفة شافية تصل بالمتسائلين إلى حقيقة واحدة، ولذا أخبر عن حال المتسائلين عن النبأ العظيم بأنهم مختلفون في فهم النبأ وحقيقته وماهيته والمراد منه ولذا وقع التساؤل.

ومن جانب آخر فإن التساؤل يكون موضع اشتراك بين اثنين أو أكثر بصرف النظر عن ماهية هذين الاثنين لأنه قد يكون:

1 . بين الإنسان ونفسه:

وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}[21]. صحيح أنها تُسأل، ولكنها لا تعرف الإجابة فتتساءل بينها وبين نفسها.

وكذلك قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا}[22].

2 . بين الإنسان وعقله:

كتساؤلات إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما رأى الكوكب والقمر والشمس للوصول إلى حقيقة الربوبية.

3 . بين الإنسان والحقائق:

كتساؤل نيوتن عندما شاهد التفاحة تسقط إلى الأسفل ولم ترتفع إلى الأعلى.

4 . بين إنسان وإنسان:

قال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}[23] .

5 . بين أناس كثيرين:

قال تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}[24] .

ولهذه المعطيات خرج التساؤل من القصور على (الأنا) إلى الموضوع الذي يحتاج إلى أكثر من شخص من أجل الوصول إلى المعرفة الواعية والوقوف عليها، وذلك لعدم الدقة في الإحاطة بأركان الإجابة من جهة، والجهل بما يطرحه التساؤل بداية من جهة أخرى قبل النقاش والبحث والاطلاع على آراء الآخرين التي غالباً ما تمثل تقديراً ظنياً للحقيقة في الرأي الفردي، حيث نلمس من خلال التساؤل الحيرة التي تنتاب الآراء من أجل الوصول إلى المعرفة العلمية الواعية تكون مقنعة أو مرضية وهي أقرب إلى الحقيقة منها إلى الظن وذلك أن:

بعض القضايا نتوصل فيها إلى عين الحقيقة.

البعض الآخر نقارب به الحقيقة.

ويوضح ذلك قوله تعالى: {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ}[25].

فأصحاب اليمين من أهل الجنة سألوا أنفسهم وسأل بعضهم بعضاً أو سألوا أهل النار عن السبب الذي جعلهم يسلكون في سقر.

فقد ذكروا أسباباً ولم يجدوا إجابات، ولهذا بقي التساؤل قائماً، لأن التساؤل بحاجة إلى من يبحث ويفكر للوصول إلى القوانين التي نتجت عنها تلك الأسباب.

ولما كان السؤال مشتركاً بين أكثر من اثنين أصبح هناك تداخل في الأسئلة وتحول ذلك إلى تساؤل واشتراك في معرفة الأسباب من أصحاب اليمين.

ولما كان دخول المجرمين النار لأكثر من سبب كان هناك أكثر من إجابة.

ولما تعددت الإجابات لتعدد الأسباب وجب أن يكون تساؤلاً وليس سؤالاً.

ولما كان المجرمون من أمم مختلفة وجب أن يكون تساؤلاً.

ذلك أن الذين يسلكون سقر منهم مجرم ومنهم من أجرم، وعلى هذا يلج النار من المسلمين والكفار على حدّ سواء، وهنا يكون التساؤل لازماً، لأن الكفار معلوم أنهم يدخلون النار، ولكن عندما يروا بينهم من المسلمين قد ولجوا النار مع الكفار فمن البديهي أن يقع التساؤل وينتفي السؤال.

وأمّا السؤال فإنه أبسط من التساؤل وأسهل منه لأنه لا يحمل قضية وإنما يحتمل الإجابة:

1- سلباً:

قال تعالى: {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ}[26].

أي: لا يهلك غيرهم.

2- إيجاباً:

قال تعالى: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[27].

أي: نعم يستطيع.

3- نفياً:

قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[28]. أي: لا أدري.

4- إثباتاً:

قال تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ}[29].

أي: علمنا وأقررنا.

5- إخباراً:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}[30].

وكثيراً ما يرد التساؤل بصيغة السؤال، ولكنه يخفى ذلك على كثير من أهل البحث والدراسة فيساوون بينهما بدلالة حرف الاستفهام دون الالتفات إلى القرينة التي تميز أحدهما عن الآخر ومثال ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[31].

فمن أجاب (بنعم) فقط أخطأ.

ومن أجاب (بلا) فقد جانب الصواب.

ذلك أن الحرف (هل) يطرح تساؤلات من خلال القرائن السابقة واللاحقة.

فالقرينة الأولى أنهما فريقان، وكلا الفريقين يحمل ثقافات وعلوم وعقائد وآراء يمكن أن تكون على الآتي:

. متداخلة.

. متناقضة.

. متضاربة.

. مختلفة.

. متنوعة.

. متعددة.

. متباينة.

وذلك بدلالة وصف كل منهما بوصف مغاير للآخر إن لم نقل على نقضيه لأن:

أحد الفريقين كالأعمى والأصم.

الفريق الآخر كالسميع والبصير.

ووفق هذه المعطيات لا يمكن أن تفي إجابة سؤال عن هذه القضايا، لأن ذلك يتطلب بحثاً نستطيع من خلاله أن نصل إلى معرفة وافية عن أحوال كلا الفريقين والمفردات الوصفية من العمى والصمم والسمع والبصر وما يترتب عليها من معطيات نقف من خلالها على نتائج معرفية تجيب عن تساؤلات مجتمعة في قضية واحدة يظن البعض أنه قد سئل عنها (بهل)الاستفهامية التي تدل على السؤال لأنه أهمل القرائن.

ثمّ بعد ذلك جاءت القرينة التي ختمت بها العبارة (الآية) أفلا تذكرون، وعملية التذكّر التي جاءت بصيغة الجمع تحتاج إلى تذكّر جماعي، أي عملية بحث جماعي في ذاكرة المتذكرين، وعملية البحث هذه، هي محاولة الوصول إلى معرفة حقيقة كل مفردة من القرائن السابقة لسد الثغرة التي طرحها التساؤل (بهل).

ومثل ذلك قوله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[32].

فإن أجاب أحد (بنعم) نقول له كيف؟

وإن أجاب (بلا) نقول له لماذا؟

وإن قال لا أدري! فقد وجب البحث.

والجواب الذي يتبعه سؤال آخر، دليل على أن الإجابة غير وافية لأننا إن توصلنا إلى معرفة الأسباب، فقد غابت عنا النتائج، ولذا وجب البحث عن القضية التي يطرحها التساؤل.